التسامح وتجلياته في الفكر العربي الحديث محمد عبده إنموذجاً

أ.م.د. صباح حمودي نصيف
* كلية الآداب / الجامعة المستنصرية

المقدمة

يحتل الشيخ محمد عبده (ت 1323هـ/ 1905 م) مكانه مرموقة وكبيرة في تاريخنا الفكري العربي الحديث والمعاصر، اذ انفق حياته داعياً إلى الحق، جاداً في فعل الخير، ولهذا وضع شخصه وعلمه وتجربته في خدمة المجتمع، فكان على بينة من تاريخ الشعوب القديمة وحضارة الشعوب الحديثة حتى اصبح موضوع دراسة وبحث وتحليل، باعتباره شخصية فذة متناغمة تزخر بالاصالة والعمق، بعد ان ترك لنا العديد من آرائه الاصلاحية وكتاباته الجريئة التي لا تخلو من الروح الفلسفية لاسيما مشكلة الحرية والخير والشر، فضلاً عن بصماته البارزة والواضحة على العديد من المجالات والميادين الاجتماعية والدينية والسياسية وغير ذلك، حتى أصبح مفكراً من الطراز الأول في إيقاظ الشعور بضرورة تحقيق النهضة المنشودة القائمة على الوحدة والتعاون والتسامح سواء في مصر او في بقية بلدان العالم العربي، فمن الصعب ان نتجاهل الدور العظيم لهذه النهضة التي تستند على العقل الذي بدوره بنشئ الحضارة ويقيم المدنية، وجعله هذا موضع اهتمام لدى الكثير من المفكرين المسلمين والغربيين.

إن موقف محمد عبده التسامحي والإصلاحي كان قائماً على أساس عقلي مستنداً على تحرير الفكر من قيد التقليد، ولهذا دعا للعودة إلى الإسلام لأنه قائم على التقوى والإيمان والتنوير، ويطوي في جوفه بذور النهضة، فأخذ يحث على حب الوطن، والتسلح بالعلم، والمطالبة بالحريات والحقوق، وتحرير العقول وتطهيرها من قيد التخلف والتعصب، والانتقال بها إلى مصاف التعايش السلمي، ولا سبيل للوصول إلى هذا إلا من خلال تعزيز علاقة الفرد بالمجتمع، تحقيقاً للرقي الحضاري، فلا نهضة حقيقية الا بالتسامح والاصلاح الحقيقي بقلبٍ وعقلٍ وفكرٍ ووجدانٍ أصيل، الذي من خلاله نتمكن من تحقيق الرقي للمجتمع، فالإنسان مسؤول عن صنع تأريخه بنفسه ومجبول على فعل الخير، وليس له الا العقل الحر والعلم النافع، كي يصبح عضواً صالحاً نافعاً في المجتمع، وما أشبه البارحة باليوم، فالزمن الذي عاشه محمد عبده يشابه زماننا الراهن من حيث

التحديات العاصفة به، التي كان يطرحها الآخر والمتمثلة بالجمود والخرافة والأسطورة واللاعقلانية، فكانت الإجابات التي قدمها عبده مهمة للغاية بالنسبة لنا نحن أبناء هذا الجيل المعاصر، لأنها أكثر عقلانية وحداثة ونهضوية، وعلينا ان نستفيد من هذا الدرس المتفتح والمتسامح الذي باشره عبده.

من اجل هذا حاولنا في بحثنا ان نضع أنفسنا موضع المفكر محمد عبده لكي نفهم وجهة نظره من مفهوم (التسامح)، كونه قيمة أخلاقية غير قابلة للنقاش، لما تتميز به عقلية الإنسان الذي يقبل التنوع والتعايش السلمي لجميع الأفراد ولكل الشعوب والثقافات، وهو مبدأ يرتقي إلى مصاف القداسة حتى يصبح قيمة ديمقراطية، ولهذا يصعب تحقيق الحداثة بكل أشكالها دون استنبات أخلاقيات التسامح وحقوق الإنسان والحريات الخ.....

من هنا اخذ محمد عبده يضع بصماته التجديدية على خارطة فكرنا العربي الإسلامي الحديث والمعاصر حتى نتمكن نحن من فتح النوافذ لرياح التغيير والعمل بشكل جذري لتحويل بنية العلاقة بين الأنا والآخر، إلى الأفضل والأحسن والأمثل، من خلال التسامح والتعامل بروح سلمية، وان يتولى المرء بكل لطف وتواضع وتعقل لتعليم غيره إلى ما هو أفضل في دحض الآراء الخاطئة التي يقولها ويكتبها القائمون هنا وهناك، وإيجاد أساس في نظرية المعرفة لمطالب التسامح بأعتبار ان البشر لا يستطيعون الوصول إلى الحقيقة المطلقة، وبهذا يصبح مطلب التسامح مؤسساً على نظرية المعرفة من خلال الفرق بين المعرفة المحددة للبشر، والحقيقة المطلقة التي لا يمكن الوصول اليها، بل يمكن الاقتراب منها، وبذلك نضع **(للبعد المعرفي)** أهميته في التسامح بأعتباره أقوى من **(البعد الخلقي)** لارتباطه بنظرية المعرفة.

عليه، سيتضمن بحثنا المحاور الآتية: التسامح لغةً واصطلاحاً، جذور وأصول وتأريخية التسامح، رؤية عبده لحقيقة التسامح وتجلياته، فضلاً عن الخاتمة واهم الاستنتاجات.

اولاً- التسامح لغةً واصطلاحاً :

1. البعد اللغوي:

التسامح في اللغة العربية لا نجد له حضوراً على الرغم من كثرة بحثها عن هذا المصطلح، فوجدنا معنى آخر مشابه وهو سمح ومعناها (السماحة والجود) ويقال: سَمَح واسمح بمعنى الجود والعطاء عن الكرم او المتابعة والانقياد، اما المسامحة فهي المساهلة **(تسامحوا تساهلوا)**، كما جاء في الحديث النبوي الشريف (السماح رباح)، أي المساهمة في الأشياء التي تربح صاحبها[1]، وبهذا فإن الدلالة اللغوية عند العرب لا تحيل إلى معنى (التسامح) المتداول بيننا اليوم، بل تفيد إلى معنى آخر وهو الجود والكرم، فهل يعني ذلك ان اللغة العربية لم تكترث لهذا المفهوم كما هو في دلالته الغربية اللاتينية، أم ان الشخصية العربية لم تدرك هذا المعنى (التسامح) بسبب عقليتها أم بسبب عدم وجود اضطهاد ديني وعرقي واثني لدى العرب اتجاه مخالفيهم في العقيدة والعرق والقومية[2]؟...

في حين نجد ان التسامح هو ((الذي لا يعلم الغرض من الكلام ويحتاج إلى فهمه، إلى تقدير لفظ آخر، والمسامحة ترك ما يجب تنزهاً))[3]، إذ إن التسامح في الشئ هو التساهل فيه، فنجد عند علماء اللاهوت هو الصفح عن مخالفة المرء لتعاليم الدين[4].

2. البعد الاصطلاحي:

التسامح مفردة لاتينية الأصل، إذ بدأ التداول بها في القرن السادس عشر، واستعملها قدامى الأدباء الكلاسيكيين، فهي تعبر عن معنى **(القبول)** أو **(التحمل)**، المتصل بحرية المعتقد، لان الاختلاف الذي يعدهُ البعض مصدراً للخطر يستطيع ان يكون بفضل الحوار مصدر فهم أعمق لسر الوجود الإنساني[5].

اذ أن هناك عدة معاني تزودنا بها المعاجم والموسوعات عن هذا المفهوم (التسامح) منها: هو السماح في الرأي والموافقة على إعلانه وان كان معارضاً، والسماح في السياسة هي اللين، وبذل ما لايجب تفضلاً[6]، اما في اصطلاحات فولتير(ت1778م) وغيره من فلاسفة القرن الثامن عشر، فنجد ان التسامح هو ما يتصف به الإنسان من ظرف وانس وأدب بحيث تمكنه من معايشة الناس رغم اختلاف آرائهم عن آرائه[7]، ومع ذلك وجدنا عند صليبا عدة معان له الأول: هو احتمال المرء بلا اعتراض كل اعتداء على حقوقه بالرغم من قدرته على دفعه، والثاني: هو ان تترك لكل إنسان حرية التعبير عن آرائه، وان كانت مضادة لآرائك، والثالث: هو ان يحترم المرء آراء غيره

لاعتقاده انها محاولة للتعبير عن جانب من جوانب الحقيقة، وهذا يعني ان الحقيقة أغنى من ان تنحل إلى عنصر واحد.....[8]

فليس تسامحنا في ترك الناس وما هم عليه من عاداتهم واعتقاداتهم وآرائهم منه نجود بها عليهم، إنما هو واجب أخلاقي ناشئ عن احترام الشخصية الإنسانية.

أما في المعجم العملي للمعتقدات الدينية فإن هذا الاصطلاح يحق في اعتراف المرء في تبني أية ديانة (حرية الإيمان) والتسامح اتجاه أبناء كل الديانات[9]، في حين نجد ان خليل احمد خليل يقول: هو استعداد عقلي او قاعدة سلوكية قوامها ترك حرية التعبير عن الرأي لكل فرد حتى وان كنا لا نشاطره رأيه[10]، لكن إبراهيم مدكور يبين لنا بأنه: سعة صدر تفسح للآخرين، وان يعبروا عن آرائهم ولو لم تكن موضوع تسليم أو قبول[11]، وهو ضد التعصب الذي هو غلو في التعليق بشخص أو فكرة أو مبدأ أو عقيدة بحيث لا يدع مكاناً للتسامح[12].

ثانياً- جذور وأصول تأريخية التسامح:

إن البحث في جذور وأصول تأريخية مفهوم التسامح، نجد ان الفلاسفة اليونان لم يزودنا عبر اشتغالهم بهذا المفهوم (التسامح)، بمعنى ان هذا المفهوم كان غائباً في مجمل النتاج الفلسفي اليوناني نفهم من هذا، ان السبب في هذا الغياب، لأن مفهوم التسامح ليس اصيلاً في الفلسفة اليونانية فضلا عن الفلسفة الاسلامية، ما عدا الفلسفة الحديثة، والدليل هو ان المفردة لم تدخل الفلسفة من باب الفلسفة نفسها، بل من باب الفكر الذي يعبر عن الصراع الاجتماعي ، ومن هنا بقى هذا المفهوم هو موضوع تشكيك واعتراض ، ولم يقبل في رحاب الفلسفة الا بامتعاض،

بمعنى آخر أنه لايوجد عند اليونان قديماً كلمة مرادفة للتسامح.

اذ ان هناك الكثير من الوقائع والدلائل منها: ان الفيلسوف أفلاطون(ت 347 ق.م) لم يتسامح مع السفسطائيين لأنهم لم يتسامحوا مع أستاذه سقراط (ت399 ق.م)، ولا أفلاطون وتلميذه أرسطو (ت 322 ق.م) تسامحاً مع الأمم الأخرى لوقوعها خارج حدود الإقليم اليوناني، فضلاً إلى ان هذان الفيلسوفان قد وصفوا الأمم الأخرى من كنعانيين ومصريين وشرقين بأوصاف لا تليق بهم من خلال انطلاقهم من نزعة عنصرية ضيقة تزعم ان التفلسف خاصية اليونان وهي نتاج عبقري متميز لهم فليس العلم الا التفكير على طريقة اليونان[13]، ونفهم من هذه النظرة انها صادرة عن نزعة عرقية ضيقة تميل إلى التمحور حول الذات، بل ان شئت فقل التعصب والانحياز والانغلاق

على الذات الأوربية وهذه هي شمية الغرب اتجاه الشرق، وان أصبحت هذه الدعاوي لا قيمة لها فسقطت بحكم الدراسات الآثارية والحضارية للأمم والشعوب واثبت البحث العلمي سبق الشرق في كل شيء على الغرب اليوناني ومن ثم الأوربي بدليل ان العلم والفلسفة اليونانية ما كانتا لتتحققا وتقوما على ما قامت عليه من آراء بغير الأصول الشرقية المتمثلة بالتراث المصري القديم وذخيرة بابل وسومر وآشور (أمثال ملحمة كلكامش في العراق) التي توصلوا بصددها إلى أراء تردد صداها بعد ذلك عند قدمى فلاسفة اليونان.

في حين وجدنا ان بعض الفلاسفة الغربيين على خلاف الفلاسفة اليونان، اذ كتبوا نتاجات فكرية ونصوص فلسفية متخصصة بهذا العنوان العريض (التسامح)، وهذا لم يكن من بناة أفكارهم، بل هو وليد حركة الإصلاح الديني في أوربا، بمعنى انه جاء كرد فعل وانعكاس لما ساد في غياب للتسامح داخل النظم الدينية، ولا سيما الكنيسة اتجاه المخالفين لها من داخل الدين المسيحي نفسه، فضلاً عن الملل الأخرى، ولهذا ولدت كتاباتهم بعد ان اصبح لها حضوراً في مجمل إنتاجهم ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الفيلسوف جون لوك (ت 1704م) في كتابه (رسالة في التسامح) ، والفيلسوف فولتير (ت1778م) في رسالته (في التسامح)، فضلاً إلى كارل بوبر (ت1994م)، وغوته، وهابرماس، وميخائيل فالزر، وغيرهم كثر، اذ كانت كتاباتهم عن هذا المفهوم نتيجة الحروب التي وقعت في القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر بين الكاثوليك وخصومهم في الدين البروتستانت، لذلك نادى أولئك بحرية الاعتقاد وطالبوا الكنيسة البابوية بالتوقف عن التدخل في العلاقة بين الله والانسان[14]، والتي أنتهت بتسامح بعضهم مع البعض الآخر هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد شهدت هذه الفلسفة مذاهب متنوعة في الاخلاق، وهناك من الفلاسفة من ركزوا جهدهم الفلسفي أو قصروه حصراً على ميدان الاخلاق انطلاقاً من الخير ، والحق، والواجب، والفضيلة، والعدالة، ونادراً ما نعثر على هذا المفهوم (التسامح) في مؤلفاتهم ومرجعياتهم بوصفها قيمة أخلاقية[15].

أما في فكرنا العربي الإسلامي فهو الآخر لم نجد فيه إشارة واضحة لهذا المفهوم (التسامح) بشكل صريح، بل وجدنا مفردات كثيرة مثل (العفو واللاكراه والتذكير الخ...) وخير دليل على ذلك كتابنا الكريم (القرآن الكريم) الرافض للعنف والتعصب كقوله تعالى **(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)**[16] فهذه الخطوه تحدى بها الخطاب القرآني النسق الثقافي السائد سواء كان متمثلاً في الوثنية ام في النصرانية ام في اليهودية كقوله تعالى **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ**

يَحْزَنُونَ)[17]، أما ما جاء عن فرعون في قوله تعالى **(مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)**[18]، وفي موضع آخر **(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)**[19]، والكلمة السواء هي الحوار بالحق وان يبدي كل طرف ما يراه صالحاً ومناسباً ، وأن تكون السماحة هي من منهاج المتحاورين ومبدأهم في التحاور بحيث يكون الأمر بين الجميع التباين والتعارف والتواد، وليس الاختلاف والتعادي والتجافي، وان تؤدي كل الطرق إلى الإيمان وإتباع الحق.

فمن هذه النصوص القرآنية نجد ان القرآن الكريم عالج قضية (التسامح) معالجة متأنية وعميقة، لذلك نجد ان الفضاء الدلالي لآيات كتابنا الكريم أخذت تحتوي الكثير من المفردات والجزئيات لهذا المفهوم كالرفقة والرأفة والرحمة والشفقة والاحسان وغيرها، اذ كان الرسول الكريم محمد ﷺ خير قدوة وأسوة حسنه لجميع البشر من خلال دعوته إلى دين الله ومافيه من اصلاح لهم، فهو القائل ((ان الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف)) وغيرها كُثر....

اذ تقودنا هذه النصوص بعد تحليلها وتفسيرها إلى حقيقة مفادها ان التسامح والأمانة والشجاعة والتعامل الحسن مع الناس والرأفة والرحمة هي النهج الإسلامي الصحيح ضد اللاتسامح والخيانة والجبن والتعامل السيئ مع الناس والقسوة ورفض الآخر، لذلك فإن الأسلوب الإسلامي الحقيقي هو الذي يهتدي بالآية الكريمة **(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)**[20].

نستنتج من ذلك، ان هذا المفهوم (التسامح)، لم يرد ذكره في القرآن الكريم، لكن الشريعة الاسلامية ذهبت الى ما يفيد معناه، فقد جاء بما يقارب أو يدل على معناه، حين تمت الدعوة الى التقوى والتشاور والتآزر والتواصل والتراحم والتعارف .. الخ كلها وغيرها من صفات التسامح مؤكدة حق الاختلاف بين البشر، ومن هنا كانت كتب اللغة ومعاجمها التي استعان بها العديد من مفسري القرآن الكريم أخذت تضع مفردة **(التساهل)** مرادفاً لمفردة **(التسامح)**، إذ كانت اشارة ابن منظور في لسان العرب واضحة بأن **(التسامح و التساهل)** مفردتين مترادفتين، فالقرآن الكريم الذي يشكل المرجعية الاساسية للشريعة الاسلامية، فضلا عن السنة النبوية الشريفة يعطونا صوراً مُشرقة للتسامح الذي اعتمد عليه الإسلام في ضوء وثيقته الأولى.

فضلا عما تقدم، نجد ان معظم الدارسين والباحثين لتأريخية هذا المفهوم (التسامح) يؤكدون ان هذا المفهوم قد عبر إلى الفلسفة العربية الإسلامية من منتج معرفي آخر جاء بهذا اللفظ قولاً وفكراً وممارسة ليجد فيما بعد حضوره في النص الفلسفي بعد ان بلغ مداه في ذلك الحقل الذي أنتجه الحقل الديني التشريعي، اذ ان بعض الباحثين ذهب على خلاف ذلك من خلال العودة بفكرة التسامح إلى الفلسفة العربية الإسلامية بدءاً من الكندي (ت 252هـ/ 866م) مروراً بعلماء الكلام واللاهوت الذين اعتمدوا المناظرة والجدل وصولاً إلى ابن رشد (ت 595هـ/1198م) في كتابه فصل المقال[21].

في حين نجد ان علماء الكلام في الأديان السماوية الكبرى ايضا لم يتسامحوا فيما بينهم داخل كل دين من هذه الأديان، وحتى مع غيرهم من لاهوتي الأديان الأخرى ومللها على الرغم من النصوص الدينية التي تحمل في طياتها أبعاداً كثيرة عن التسامح، الا اننا لا نجد عن هؤلاء اللاهوتيين أي تسامح، والسبب في ذلك، يعود إلى المنتج العقلاني العقيدي القائم على العقل الجدلي، لأنه يميل في طبعه إلى الجدل والخصام واللاتسامح، وهذا ما تخبرنا به مناظراتهم وكتبهم التي تحمل في طياتها وعناوينها العنف والتشدد والانغلاق والعداء والتعصب الفكري في العقيدة اتجاه الخصوم، ومن بين هؤلاء الجدليين من قنن طريقة الجدل والمناظرة بضرورة احترام الآخر كالجويني (ت 478 هـ/ 909م)[22]، اذ وجدت قرينه لموقف الجويني عند الفيلسوف لسنج (ت1781م) من خلال تبنية فكرته في طريقة الجدل للوصول إلى المعرفة، وبنظرة لا يمكن ان يكون ذلك ممكناً الا بأحترام الآخر والاعتراف به، فضلاً عن ذلك، تزودنا النصوص التأريخية أنه قد تأثر بالإسلام وفلاسفته وعلى وجه الخصوص لا الحصر بابن طفيل (ت 581 هـ/ 1185م) بعد ان قرأ قصته (حي بن يقظان)[23].

ولكن عالمنا المعاصر وللأسف فقد ظهر فيه صراع اخذ يطفوا على السطح الأن بين تيارين: الحداثة و العولمة من خلال ارتفاع الاصوات هنا وهناك لتعلق نهاية الايدولوجيا ونهاية التاريخ..، وما ينشر من آراء ونظريات تكرس ما اصبح به اليوم بـ (الفكر الأحادي) الحامل لواء هذه العولمة على الصعيد الاقتصادي والهادف الى فرض هيمنة فكرية ايديولوجية على العالم كُله، فضلا عن التبشير بما يسمى (صراع الحضارات)، فهي دعوة ترمي الى تعبئة الغرب كحضارة ومصالح ضد حضارات دول أخرى وفي مقدمتها على سبيل المثال لا الحصر الحضارة الصينية والحضارة العربية الاسلامية هذا من جهة، والتيارات الإسلامية من جهة أُخرى، من خلال التشدد على طرف وعدم الاعتراف به وقمع أفكاره وتغيبه[24]، عن طريق ممارسة سلوكيات تميل الى التطرف والتمحور حول الذات والانغلاق، وهذا يعني إلى بروز مفهوم معاكس لمفهومنا موضوع

البحث الا وهو اللاتسامح واللاعقلانية والتشدد والتعصب، وهذا بدره قائم على العنف والتطرف في الخطاب السياسي والديني وغيره، وفي أشكال السلوك الفردي في التعامل الحياتي اليومي، بحيث أوقعها في أخطاء كثيرة راح ضحيتها الكثير من المفكرين والمثقفين ناهيك عن الأبرياء من الناس، فمن بين هذه الأسباب هو الافتقار إلى المنهج الصالح السليم لفهم القرآن الكريم نفسه، ومن هنا علينا ان ندعم ونعزز ونأصل روح التسامح بين أفراد المجتمع بالرجوع إلى قرآننا الكريم وأحاديث رسولنا الشريف محمدﷺ، وهذا أمر يستدعي أستعادة المثقفين مكانتهم في الحياة الاجتماعية وترسيخ ثقافة الحوار من خلال وحدتنا وأخوتنا وتعاوننا فيما بيننا حتى نقضي على مرض التطرف المدمر والتزمت، ولا سيما في الأفكار والآراء والقيم والمعتقدات الدينية والتأريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والعرقية، على الرغم من عدم الاتفاق معهم عقائدياً وفكرياً وقيمياً.

فالحق والحق في الاختلاف يحيل إلى معنى آخر للتسامح وهو التحمل والذي يعني قبول الآخر على علاته، وعدم الغلو في الدين الواحد، فضلاً عن احترام الاقليات الدينية في ممارسة عقائدها وشعائرها الدينية من دون تضييق او ضغط، فالحاجة الى التسامح تفرض نفسها بحكم تعدد الممارسات الدينية داخل الدين الواحد، وتعدد الاديان داخل المجتمع الواحد، فهذا التعدد هو ظاهرة إنسانية حضارية لايمكن تجاوزها[25] .

إذاً فكرة التسامح، ما هي الا القدرة على تحمل الرأي الآخر والصبر على اشياء لا يحبها الانسان ولا يرغب فيها، بل يعدها احياناً مناقضة لمنظومته الفكرية والاخلاقية، لان قبول مبدأ التسامح وفكرة التعايش يعني تجاوز سبل الانقسام الذي يقوم على اساس الدم او الرابطة القومية او الدين او الطائفة أو العشيرة أو غيرها.. من الناحيتين النظرية والاخلاقية، وبهذا المعنى فإن مبدأ التسامح هو فكرة اخلاقية ذات بعد سياسي وفكري إزاء المعتقدات والافعال والممارسات[26]، ومن هنا كان العديد من مفكري التنوير العربي قد فهموا الكثير من الابعاد الايجابية للتسامح فأكدوا على ضرورة الدولة المدنية بوصفها الفضاء الذي يعيش فيه التسامح ويتزايد ، بل تجد من يصونه ويرعاه ويحميه داخل منظومة (حقوق الانسان) المعترف بها في الدولة المدنية، لذلك هي ترتبط بفكرتان متلازمتان في تفكيرهم:

الاولى- انه لا وجود للتسامح الا مع تقبل مبدأ الحرية وممارسته في كل المجالات.

الثانية- الايمان اللامحدود بقدرة العقل على الوصول الى المعرفة بذاتها وقدرته النهائية على تطورها على مدى لا يحدده حد[27] .

إذ إن الايمان بالعقل يعني الايمان بالعلم الذي يتبادل معه الوضع والمكانة، اعني التقدم الذي لا يمكن ان يتحقق الا بالخطوة الاولى التي تقترن فيها استنارة المجتمع بأنوار العقل التي تقضي على ظلمات الجهل، وهنا يناقض فيها التسامح التعصب الى ان يقضي عليه، فيحل الانفتاح محل الانغلاق، وقبول الاختلاف محل رفضه، وتستبدل ثقافة العلم محل الخرافة، والعقل محل النقل، ومن ثمَّ التقدم محل التخلف، وهكذا اصبح التسامح قرين التقبل الايجابي للاختلاف، والايمان بالحضور الطبيعي للمغايرة على مستوى الفرد والجماعة والمجتمعات على السواء، وهذا يعني مجادلة الآخر بالحسنى في مدى الاختلاف الفردي من دون التخلي عن الايمان والمساواة والتكافؤ، فضلاً عن احلال الحوار محل الصراع، والتعاون محل الانانية، وحوار الحضارات محل صراع الحضارات، والتسامح محل اللاتسامح، بلا فارق او تمييز[28].

وهنا نضفي مزيداً من المدنية والإخاء والإنسانية، لان للتسامح تجلياته الاجتماعية والثقافية والفكرية والقانونية.

ثالثاً- رؤية عبده لحقيقة التسامح وتجلياته

التسامح فكرة وقيمة أخلاقية، وهو نوع من العلاقة غير العقائدية مع الحقيقة لمختلف الأفكار والاعتقادات، إذ إن الدعوة إليه ما هي الا دعوة تقوم على حالات ثلاثة **(التقبل والأحترام والتعاون)** مع الآخر.

فالتسامح في الشأن الديني وفق رؤية محمد عبده يعني تخصيص مكانة لمختلف الأديان في حدود السلطة الدنيوية والروحية، لان هاتين السلطتين يجاور بعضها البعض، لذلك فالدولة العلمانية تكون فيها السلطة المدنية هي التي تشرع القوانين في الميدان المدني، لانها بالتأكيد لا تحدد أو تعين العقائد ونوعية العبادة والشعائر التي يتوجب إتباعها، لكن لها أن تبت في الطقوس، ولها الحق في ان تخضع الممارسات الثقافية إلى المبدأ الأعلى في احترام السلم الاجتماعي الذي تتكفل الدولة بالحفاظ عليه والذي ينبغي للسلطات الدينية ان تترك شأنه للسلطات المدنية، هذا يعني ان منح حرية الاعتقاد والتفكير المستقل والاعتراف بالحقوق للآخر والاجتهاد بالرأي هذه أمور غير قابلة للنقاش كونها لا تعتمد على معرفة فيما إذا كان المرء مخطئاً أو مصيباً في اعتقاده[29].

ومن هنا أخذ التسامح بقبول حقيقة الأفكار والمعتقدات بدلاً من الحكم عليها، وهذا ما تتميز به عقلية الشخص الذي يقبل التنوع في كل الأشياء بأعتبار ان الوفاق هو الأساس الذي يقوم عليه التسامح وهو الذي يغذي كل اعتقاد صادق بالإله مقابل الأديان والذي يتخذ من السلام مبدءاً له، أما

التنافر فهو المرض الأخطر للجنس البشري والذي يتخذ من الحرب مبدءاً له، وهذا ما سعى إليه محمد عبده في ان تتوحد كل الديانات حول الوحدة الإلهية بـ **(دين كوني)** عابر ومتجاوز لكافة الخلافات من خلال تقديم العقل على ظاهر الشرع[30].

إذن من التناقض في (مفهوم التسامح) منع أي فرد من ان يفكر كيف يشاء، وان تجهر بما يفكر به، لان ذلك من حقه، لكن يتوجب على ذلك ان توضع حرية الفكر ضمن إطار قانوني الذي بدوره يحقق التوافق بين الحريات وإرادة الأفراد، بمعنى ان يترك لكل فرد الحرية في التفكير والعيش كما يريد ما دامت طريقة التفكير والعيش لا تطمحان إلى فرض نفسيهما على الجميع بطريقة تسلطية أو بوساطة العنف، وهنا نلاحظ أن عبده في هذه المسألة أخذ يعول على التربية وتعليم الجمهور و إيقاظ ضميره من خلال إطلاق حريات التفكير والاختيار حتى تكتمل العلاقة الشرطية بين **(الدستورية)** كنظام سياسي و **(العقلانية)** كمنهج فكري فسعى إلى تعميم الثقافة القانونية حتى يعرفون ما لديهم وما عليهم [31].

لذلك لابد لنا من استلهام تاريخ فكرهُ الاجتماعي والفلسفي والسياسي الذي نادى به من خلال الاعتراف بالحرية المطلقة للاعتقاد الفردي والذي ينبغي أن لا يقلق أحد بشأن آرائه ومعتقداته وان حدث ذلك، فإنه بالتأكيد سوف يرتقي إلى مصاف القدسية، علماً أن التسامح عند محمد عبده لا يمكن أن يكون بمعزل عن المسألة السياسية، فلكي يكون فعالاً يفترض على العكس الاعتراف بالإطار الديمقراطي كإطار وحيد يمكن التسامح من ان يكون قابلاً للتطبيق حتى يكون قيمة ديمقراطية[32].

أخذ محمد عبده يركز جهوده لإنهاض الأمة المصرية بخاصة، والعربية بعامة، نهضة أخلاقية من خلال الاتصال بالناس عن طريق العمل ونشر التنوير العام وإصلاح ذات البين بين العائلات والانضواء تحت علم الحرية والجهاد والوطنية ومحاربة كل أنواع الأستبداد المخيمة على حياة الشعوب، إذ يتطلب ذلك أعطاء وزن للشورى في حياة المجتمع، فضلاً إلى التآخي بالإخوة الإسلامية التي إذا ما فهمت فهماً صحيحاً فإنها ولا شك لا تعمل على وحدته العقلية والروحية فحسب، وإنما على وحدته الكلية من خلال إصلاح النظم الاجتماعية التقليدية، حتى تساير مطالب الحياة العصرية، وفي هذا الجانب كان يرى محمد عبده رأي الفيلسوف أفلاطون- ان الأتصال المباشر بالناس هو الذي يعين على إشعال الجذوة الروحية بين الآخرين[33]، ويبدو ان هذه الرسالة التي حملها عبده تشبه في كثير من الوجوه رسالة الأخلاقيين القدماء في عهد الإمبراطورية

الرومانية، فكلما استطاع فلاسفة روما القدماء والرواقيون على وجه الخصوص في ان يؤثروا تأثيراً مباشراً في عقليات الناس، كذلك استطاع عبده في أواخر القرن التاسع عشر في ان يبث تعاليمه الأخلاقية والسياسية والدينية وغيرها وأن ينشر نفوذه الروحي عن طريق القدوة الحسنة والتسامح والمروءة والرأفة، فأخذ على عاتقه بمكافحة كافة العادات والتقاليد السيئة من خلال نقده للبدع والمعتقدات الفاسدة ويحمل على الظلم والاستبداد ويندد بجميع الانحرافات الاجتماعية والسياسية والدينية من عنف وتعصب وأنانية... وتعد هذه خطوة جريئة منه في طريق نبذ اللاتسامح واختفاء ثقافته وخطابه وعقله، وتأسيس مجتمع العدل والسلام وقبول الآخر، بدل من رفضه وإقصاءه وتهميشه لأن مرد ذلك اما الجهل المطلق أو سوء فهم للإسلام والحياة.

ومن هنا انطلق تفكير محمد عبده في قضية الانحطاط الداخلي والحاجة إلى التصميم الذاتي وعدم الرجوع إلى الماضي، بل الاعتراف بالحاجة إلى التغيير وربط هذا التغيير ليس بمبادئ الإسلام فحسب، بل اعتبار هذا التغيير من المستلزمات الضرورية إذا ما فهم على حقيقته مما يجعله صالحاً لان يكون أساساً للحياة الحديثة[34].

إذن التسامح لا يعني أن نتخلى عن معتقداتنا أو لا ندافع عنها أو لا ننتقد الرأي الأخر أو لا ندعوا إلى ما نراه عندنا صوباً أو لا ننفر مما نراه عند الآخر خطأً وباطلاً، وانما أن نمتنع عن غضب الآخرين على اعتناق آرائنا أو قهرهم على التخلي عن آرائهم، فيوجب التسامح احترام آرائهم وضمان حريتهم في التعبير والاعتقاد والاجتماع، وان الحقيقة ليست حكراً لطرف دون سائر الأطراف لأنها نسبية، وانه مع اجتماع الآراء المتباينة يظهر الحق ويزهق الباطل وينطمس، فلكل فرد حقه في الاعتقاد والتعبير عن رأيه على أساس شرعية الآخر المختلف دينياً وسياسياً.... لذلك اخذ التسامح بالتطور بفعل التنظير الفلسفي ليتحول إلى جزء من واجب تفرضه الحرية الشخصية التي يراد لها ان تكون متساوية بين الجميع، وليس هناك ما يبرر احتكار هذا الحق لجهة دون أُخرى، ووفقاً لهذا الرأي يقول الآخر انه ليس مِنّه وانما واجب تفرضه الحرية الشخصية، أما اللاتسامح فهو منهج المتعصبين وغاية المستبدين سواء كان (دينياً) الذي يمارسه رجل الدين من خلال سلطة (النص) ويوضعه في خدمة مصالح المؤسسة الدينية أو مصالح الطاغية أو الطبقة الحاكمة، عندها يتصدى رجل الدين لالتماس الشرعية للاستبداد السياسي باسم الدين، وهنا يفقد الدين دوره الإصلاحي والأخلاقي العام، لذلك دعا إلى تحريره من قيد التقليد وجعله موازياً لكل ما هو قيمي وأخلاقي ووجداني الذي يعتبر الكونية معياراً للعقلانية، وان تسير الأمة على هدى الإبداع لا على طريق الإتباع حتى يكون للعقل مكانه في حياة الناس، أو قد يكون (سياسياً) تمارسه في

بعض الحالات الدولة من خلال سيادة قيم اللاتسامح المتمثل بالانغلاق والتعصب والعنف وهذه بدورها ترسخ الميول الطائفية والمذهبية والعرقية مما يدفع الناس إلى التحول من الإسلام المعتدل إلى المتطرف، لأن هذا الواقع ما هو الا تربية خصبة للطائفية التي تمدها السياسة مما ينسى المتطرفين خصمهم الحقيقي وقضيتهم الأساسية في تحقيق النهضة والعدالة الاجتماعية والتغيير ومواجهة الهيمنة الأجنبية[35].

الخاتمة وأهم الاستنتاجات

1. توصل الباحث أن مفهوم التسامح كان غائباً في النتاج الفلسفي اليوناني لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو، فهم لم يتسامحوا مع الأمم الأخرى لوقوعها خارج حدود الإقليم اليوناني من كنعانيين ومصرين وشرقيين وغيرهم، في حين وجدنا ان بعض الفلاسفة الغربيين أمثال جون لوك وفولتير وكارل بوير وغيرهم على خلاف ذلك فكتبوا نتاجات فكرية ونصوص فلسفية متخصصة بهذا المفهوم (التسامح) والتي انتهت بتسامح الكاثوليك مع خصمهم البروتستانت.
2. لاحظنا ان الفكر العربي الإسلامي هو الآخر لم نجد فيه إشارة واضحة لهذا المفهوم (التسامح)، بل وجدنا مفردات كثيرة تدل على هذا المفهوم كالعفو والتذكر واللأكراه والرفقة والرأفة الخ... فهناك نصوص قرآنية كثيرة عالجت هذه القضية معالجة متأنية وعميقة، إذ كانت السماحة هي منهاج المتحاورين ومبدأهم التحاور بحيث يكون الأمر بين الجمع التباين والتعارف والتواد والمحبة، وليس الاختلاف والتعادي والتجافي والكره.
3. لوحظ ان الكثير من الباحثين والدارسين لتأريخية مفهوم التسامح يؤكدون ان هذا المفهوم عبر إلى الفلسفة العربية الإسلامية من منتج معرفي آخر جاء بهذا اللفظ قولاً وفكراً وممارسة ليجد فيما بعد حضوره في النص الفلسفي بعد ان بلغ مداه في ذلك الحقل الذي أنتجه الحقل الديني التشريعي، لكن بعض الباحثين ذهب على خلاف ذلك من خلال العودة بالتسامح إلى الفلسفة العربية الإسلامية بدءاً من الكندي وصولاً إلى ابن رشد، في حين وجدنا ان علماء الكلام في الأديان السماوية لم يتسامحوا فيما بينهم داخل كل دين من هذه الأديان وحتى مع غيرهم من لاهوتي الأديان الأخرى ومللها على الرغم من النصوص الدينية التي تحمل في طياتها أبعاداً كثيرة عن التسامح، والسبب في ذلك، يعود إلى المنتج العقلاني العقيدي القائم على العقل الجدلي الذي يميل في طبعه إلى الجدل والخصام واللاتسامح، وهذا ما تخبرنا به مناظراتهم وكتبهم، لكن بعض هؤلاء الجدليين من قنن من طريقة الجدل والمناظرة من خلال احترام الآخر كالجويني.

4. وجدنا ان الخطاب السياسي والديني المعاصر برز فيه مفهوم اللاتسامح القائم على العنف والتطرف والتعصب وغيرها بحيث أوقعها في أخطاء راح ضحيتها الكثير من المفكرين والمثقفين والأبرياء من الناس، والسبب يعود إلى الافتقار إلى المنهج الصالح للفهم القرآن الكريم الذي فيه الكثير من النصوص القرآنية الذي تثبت الرحمة والرأفة واللأكراه....
لذلك يجب علينا ان ندعم ونعزز ونؤصل روح التسامح بين أفراد المجتمع بالرجوع إلى كتابنا الكريم وأحاديث رسولنا الكريم ﷺ.....

5. التسامح فكرة وقيمة أخلاقية تقوم على ثلاث حالات (التقبل والاحترام والتعاون) مع الآخر، من هنا أخذ محمد عبده على عاتقه بتخصيص مكانه لمختلف الأديان في حدود السلطة الدنيوية والروحية من خلال قبول حقيقة الأفكار والمعتقدات بدلاً من الحكم عليها باعتبار ان الوفاق هو الأساس الذي يقوم عليه التسامح وهو الذي يغذي كل اعتقاد صادق بالإله مقابل الأديان.
6. اخذ محمد عبده يركز على التربية والتعليم من خلال أطلاق حريات التفكير والاختيار حتى تكتمل العلاقة الشرطية بين الدستورية كنظام سياسي والعقلانية كمنهج فكري، فأخذ يدعوا إلى تعميم الثقافة القانونية وتربية الجمهور وإيقاظ ضميره لمحاربة كل أنواع الاستبداد ويتطلب ذلك التآخي بالإخوة الإسلامية، وهذه خطوة جريئة منه في طريق نبذ اللاتسامح وقبول الآخر بدل من رفضه وإقصاءه وتهميشه فمردود ذلك اما الجهل المطلق أو سوء فهم للإسلام والحياة.
7. وجدنا ان محمد عبده يؤكد دائماً على الاعتراف بالحاجة الى التغيير عن طريق ربط هذا التغيير ليس فقط بالاسلام، وانما عد هذا التغيير من المستلزمات الاساسية والصالحة للحياة الحديثة، لكن هذا لا يعني بحسب رأيه أن نتخلى عن معتقداتنا وتقاليدنا، بل يجب ان نمتنع عن غضب الآخرين وضمان حريتهم، فلكل منا حقه في الاعتقاد والتعبير عن رأيه على اساس شرعية الآخر المختلف دينياً وسياسياً، من هنا أخذ هذا المفهوم (التسامح) بالتطور بفعل التنظير الفلسفي ليتحول الى جزء من واجب تفرضهُ الحرية الشخصية التي يراد لها ان تكون متساوية بين الجميع.
8. في ضوء ما تقدم، وجدنا ان التسامح فضيلة موجودة في بنية ثقافتنا، اذ يتم التعامل معه بعده ثابتة من ثوابت المجتمعات المتقدمة، فقد ارسى على قوانين اكثر انسانية، إذ فرضت على الدول انماطاً جديدة من التفكير واعمال العقل لاستنباط مخارج تجنب البشرية من العنف والتعصب، فنحن اليوم بحاجة الى ضبط المعنى الجوهري لهذا المفهوم (التسامح) وتحديد مضمونه وجذوره الفلسفية، والمعرفية، والسياسية ..، فضلاً عن بيان موقفه في سلم القيم

والمبادئ الاجتماعية، من هنا اخذت قواميس اللغة ومعاجمها الفلسفية والسياسية تجمع على تقدم هذا المفهوم بمعناه الاخلاقي على انه موقف فكري وعملي قوامه تقبل المواقف الفكرية والعملية التي تصدر من الغير سواء كانت مواقفه مخالفة للآخر أو الاعتراف بالتعدد والاختلاف وتجنب اصدار احكام مسبقة تقصي الآخر، فهو إذاً اقصد التسامح، احترام المواقف المخالفة، لأن المسافة بين احترام الحرية وحق المخالفة مسافة واهية، فإذا لم يكن للمخالفة أو المغايرة أو المباينة معنى مع غياب التسامح، فلا معنى لمبادئ الحرية أو المساواة أو التكافؤ في غياب معنى المواطنة الذي يكفل للفرد حقوقه في الدولة بلا تمييز بينه وغيره على أساس الدين أو الجنس أو العرق أو اللون ....

قائمة المصادر والمراجع

[1] ابن منظور: لسان العرب، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، المجلد الأول، ط1، ج1، بيروت 2005 (مادة سمح)، ص1885.

[2] د. حسن مجيد العبيدي: هل التسامح فكرة فلسفية؟ دراسة من منظور مختلف، المؤتمر الفلسفي العربي تحت عنوان (التسامح في الفكر الفلسفي والديني)، بيروت 2013.

[3] الجرجاني: التعريفات، نشرة احمد مطلوب،(ب.د)، بغداد 1986، ص37 ويقارن : د. عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة 2000، ص193.

[4] د. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ذوي القربى، ط1، ج1، قم (1385ه/2005 م)، ص271.

[5] ينظر: ثناء عطوان، التسامح والتاريخ، مجلة دبي الثقافية، العدد 62، دبي 2010، ص103.

[6] د. عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل ، ص193.

[7] د. جميل صليبا: المصدر نفسه، ص271.

[8] المصدر نفسه، ص272.

[9] سعد الفيشاوي: المعجم العملي للمعتقدات الدينية، مراجعة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية، القاهرة 2007، ص636.

[10] خليل احمد خليل: الموسوعة الفلسفية، ط2، المجلد3، بيروت 2001، ص1460.

[11] د. إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع، القاهرة 1979، ص44.

[12] المصدر نفسه، ص49.

[13] د. حسن مجيد العبيدي، المصدر نفسة، ص12 وللتفصيلات يراجع: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت (ب،ت)، ص45 وما بعدها.

[14] د. حسن مجيد العبيدي، المصدر نفسة، ص3 وللتفصيلات يراجع: عابيد الحسن، الجذور التاريخية واللاهوتية في نشأة مفهوم التسامح، مجلة مدارات فلسفية، العدد6، المغرب 2001، ص169.

[15] عابيد الحسن: الجذور التاريخية واللاهوتية، ص170.

[16] القرآن الكريم: البقرة 256.

[17] القرآن الكريم: البقرة 62.

[18] القرآن الكريم: غافر 29.

[19] القرآن الكريم: ال عمران 64.

[20] القرآن الكريم: فصلت 34 و35 .

[21] د. حسن مجيد العبيدي، هل التسامح..، ص52 وما بعدها ويقارن : محمد احمد عواد، منطلقات التفاهم عند الفلاسفة المسلمين، مجلة التسامح، العدد1، عُمان 2000.

[22] د. حسن مجيد العبيدي، المصدر نفسة، ص13-14 وايضاً: سيلفيا هورش، الإسلام والعقلانية والتسامح، ترجمة محمد شاويش، مجلة التسامح، العدد13، عُمان 2006، ص292.

[23] د. حسن مجيد العبيدي، المصدر نفسة، ص14 وللتفصيلات ينظر: ابن طفيل، حي بني يقظان، قدم وحقق د. فاروق سعد، ط4، الدار العربية للكتاب، تونس 1983.

[24] د. محمد عابد الجابري: قضايا في الفكر والمعاصر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1997 ، ص29.

[25] عبد الحسين شعبان: فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي، ط1، دار النهار للنشر، بيروت 2005، ص62 و 63.

[26] المصدر نفسه، ص63.

(27) المصدر نفسه، ص55 وأيضا ينظر: د. محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص30.

(28) عبد الحسين شعبان: المصدر نفسه، ص56.

(29) د. عثمان أمين: رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1965، ص166 ويقارن: إلبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، دار النهار للنشر، بيروت 1968، ص 170 وما بعدها.

(30) عبد الرزاق عيد: الإسلام والحداثة (تجربة محمد عبده)، ط1، معهد الدراسات الأستراتيجية بيروت 2006، ص42 وبخصوص (العقل والشرع) يراجع: د. عبد الرحمن محمد بدوي، الإمام محمد عبده والقضايا الإسلامية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة 2005، ص5 ومابعدها.

(31) عبد الرزاق عيد:الاسلام والحداثة ، ص59، ويقارن د. عبد الرحمن محمد بدوي، الإمام محمد عبده والقضايا الإسلامية ، ص53.

(32) عبد الرزاق عيد: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(33) د. عثمان أمين: رائد الفكر المصري، ص166 وايضاً: د. إبراهيم خليل العلاف، تاريخ الفكر القومي العربي، دار الشؤون الثقافية، بغداد 2001، ص109.

(34) إلبرت حوراني: الفكر العربي، ص172.

(35) د. فاضل زكي محمد: الفكر السياسي العربي الإسلامي بين ماضيه وحاضره، ط2، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد 1976، ص361 وما بعدها وأيضاً: سمير ابو حمدان، الامام محمد عبده جدلية العقل والنهضة، دار الكتاب العالمي، بيروت 1992، ص54 ويقارن: عبد الرزاق عيد، محمد عبده إمام الحداثة والدستور، ص17.